http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد(1381) السنة السادسة -السبت (29) تشرين الثاني 2008

الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

عوائق دينية وتاريخية أمام فصل الدين عن الدولة العربية

شاكر النابلسي
امريكا

> كان على دولة الرسول عليه السلام الأولى في المدينة المنورة، جملة ملاحظات تاريخية وعلمية، استطاع بعض المحللين أن يقدموها، بعيداً عن هالة القداسة التي عادة ما تُحاط بها هذه الدولة، من قبل المؤرخين الإسلاميين التقليديين، في الماضي والحاضر. فبعض المفكرين العرب المعاصرين، يحثنا على أن نُخضع ظاهرة دولة النبي عليه السلام، وغيرها من الظواهر التاريخية للدراسة والتحليل، ولا نبحث لها عن قوانين خاصة بها، تستثنيها عما دونها من الظواهر الشبيهة. ومن هنا، فإن الأزمة التي تواجهها الدراسات العربية – الإسلامية التاريخية هي أزمة منهاج. وقد أدى غياب المنهاج العلمي إلى غياب النظرة الفاحصة لسيادة تصورات غير صحيحة وغير واقعية، عن دولة المدينة، وأضحت هذه التصورات وقوداً لإشعال حلم غير واقعي، يستنزف طاقة الكثيرين في العالم العربي والإسلامي، وهو حلم العودة إلى يوتوبيا «دولة المدينة» كما قال محمد محمود (دولة المدينة الإسلامية العربية، ص٩١).

ملاحظات حول دولة الرسول عليه السلام

ومن الملاحظات على دولة الرسول عليه السلام، التي لها علاقة مباشرة بصلة الدين بالدولة ما يلي:

١- كانت هذه الدولة تحالفاً بين عناصر مختلفة، تعي تميزها وتنافر مصالحها.

٢- ظلت القبيلة والعشيرة أساس العصبية التي تستند عليها السلطة. وهذا يتضح من انفراد المهاجرين بالسلطة المدنية والسياسية، باعتبارهم عشيرة النبي عليه السلام، وأساس هيبة الدولة، وأن العرب لن يدينوا لغيرهم بالسلطة.

٣- لم تجد صيغة المشاركة المتساوية قبولاً، وتركّز الصراع على انفراد قوة من القوتين بالسلطة، وهي قوة المهاجرين، حيث قيل للأنصار، أنهم يفتقدون الصدقية أمام باقي العرب، علماً بأن المهاجرين والأنصار كانوا على قدم المساواة أمام الإسلام كدين، ولكن ليس أمام الإسلام السياسي.

٤- لم يكن منطق الصراع دينياً، تحسمه قضايا إيمانية واضحة لا لبس فيها، وإنما كان الصراع سياسياً، تحسمه اعتبارات السياسة، وبأس القبيلة.

والسؤال هنا هو:

ماذا تركت دولة الرسول عليه السلام من تنظيمات مدنية وعسكرية وإدارية، لم تقم بها، قياساً للزمان والمكان الذي قامت فيه، وقياساً للمفهوم الإداري والتنظيمي للدولة، الذي كان سائداً في ذلك العصر، وفي إمبراطوريات مجاورة؟

السيرة النبوية كانت دينية وسياسية وعسكرية

من الملاحظ، أن أخبار الرسول عليه السلام في التاريخ الإسلامي لم تكن أخباراً دينية خالصة فقط، بقدر ما كانت سياسية وعسكرية وإدارية. بل إن معارك الرسول عليه السلام، وحملاته العسكرية، وغزواته، وبعثاته السياسية إلى الدول المجاورة، احتلت حيزاً كبيراً من السيرة النبوية، كما لم تحتلها في أية سيرة نبوية أخرى من قبل. وهو ما يشير إلى أن حياة الرسول عليه السلام، كانت مُكرَّسة في جزء كبير منها إلى إقامة دولة، ذات تقاليد عسكرية وإدارية وسياسية كذلك. وهو ما أورثه الرسول عليه السلام للخلفاء الراشدين من بعده، الذين لم يبدأوا بناء الدولة من الصفر، ولكنهم وجدوا أمامهم أسساً أكملوا بناءها. ومن هنا، لم تكن صفات النبي عليه السلام في التاريخ الإسلامي أنه نبي فقط، ولكن كانت من صفاته الشخصية: القائد، سائس الأمة، الأمير، ولي الأمر، الإمام، كما يقول محمد عمارة في («الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية، ص ٤٥).

ترتيبات إدارية في دولة الرسول عليه السلام

قام النبي عليه السلام أثناء حياته – كما لم يقم أي نبي آخر – بالبدء في بناء الدولة خارجياً. فهو الذي عيّن باذان بن ساسان، أول الأمراء الحكام من المسلمين في اليمن. ولنلاحظ هنا، أن الرسول عليه السلام، هو الذي بدأ مبدأ «التعيين» في المناصب السياسية والإدارية والقضائية باختيار شخصي. ولم يترك الأمر في التعيين منذ البداية للانتخاب من قبل المحكومين. في حين أن مبدأ الانتخاب كان سائداً منذ زمن طويل أيام الإغريق، كعنصر من عناصر الديمقراطية. والرسول عليه السلام، هو الذي عيّن شهر بن باذان والياً على صنعاء. وهو الذي عيّن خالد بن العاص والياً على صنعاء أيضاً. وهو الذي عيّن ابن أبي أمية المخزومي والياً على كندة والصدف. وعيّن زياد بن أمية الأنصاري والياً على حضرموت. وعيّن أبا موسى الأشعري والياً على زبيد وعدل وزمع والساحل. وقام بتعيين كل من: أبي سفيان على نجران، ويزيد بن أبي سفيان على تيماء، وعتاب بن أسيد على مكة، وعمرو بن العاص على عُمان، وغيرهم.

ترتيبات قضائية وإدارية لاستكمال بناء الدولة

والرسول عليه السلام، إلى جانب قراراته السياسية هذه التي اتخذها في حياته متمثلةً بتعيين هذه المجموعة من الحكام السياسيين، اتخذ قرارات إدارية أخرى بتعيين القضاء والجُباة للزكاة استكمالاً للبناء السياسي الذي بدأه والذي أكمله من بعده الخلفاء على امتداد قرون طويلة. فعيّن مالك اليربوعي على صدقات بني حنظلة، وعيّن معاذ بن جبل قاضياً في اليمن، واختار بنفسه كثيراً من الجُباة لجباية الزكاة. و «كان الرسول عليه السلام قد ولّى جمع الصدقات جماعة كثيرة، وبعث أمراءه وعمّاله على الصدقات، إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان». (محمد أبو فارس، «النظام السياسي في الإسلام»، ص١٤٤، ١٤٥).

مُلكٌ ديني استمر لستة قرون

إن القوة العسكرية الضاربة والآلية الحربية المرموقة – قياساً لذلك الزمان – التي تركها الرسول عليه السلام في المدينة، والتي أثبتت قدرتها العسكرية، وانضباطها في معركتي حُنين وتبوك، والتي استُعملت بعد وفاته عليه السلام، في حروب الردة وفي الفتوحات التالية، كانت خير دليل على تمتّع النبي عليه السلام، بقيادة عسكرية مميزة كرجل دولة من طراز رفيع..

وهذه كلها إجراءات سياسية وإدارية بحتة، قام بها الرسول عليه السلام انطلاقاً من اعتبارية شخصيته الدينية والسياسية في الوقت نفسه، وانطلاقاً من مهمته كمؤسس «لمُلك ديني» استمر قيامه ستة قرون (٦٣٢-١٢٥٨م) محصوراً في عصبية واحدة وهي «قريش». وهكذا، فإن الرسول عليه السلام، عندما رحل «ترك ديناً مكتملاً ودولة مهيمنةً على الجزيرة العربية كلها، مترابطين بشكل لا يقبل الانفكاك. كما أن وفاة النبي عليه السلام، طرحت مسألة حقيقية واحدة، وهي مسألة الحفاظ على إنجازه من دين ودولة، وليس على الإنجاز الديني فقط»، كما يقول المفكر التونسي هشام جعيط (جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ص ٣٣-٣٤).

ومن هنا، فإن القول بأن مهمة الرسول عليه السلام، كانت مهمة دينية فقط، تنحصر في الدعوة الدينية فقط، مثله مثل باقي الأنبياء والرُسل من قبله، قول غير سليم.

والقول بأن النبي كان نبياً فقط، وليس بذي سلطان سياسي، قول غير صحيح أيضاً. ولو كان الأمر كذلك لما أقام دولته في المدينة، وأوصى بمن يخلفه فيها، لتسيير أمورها، واستمرار نموها، وازدهارها.

والذين يقولون هذا القول، ويرددونه، ويركزون عليه، يريدون من وراء ذلك الخير والتكريم الجميل للرسول عليه السلام، بأن يرفعوه إلى مرتبة روحانية مطلقة، بعيداً عن أوساخ السياسة ونجاسات الرئاسة، وتدعيماً لمقولتهم في فصل الدين عن الدولة، وبأن النبي عليه السلام، كان نبياً داعية لدين فقط، ولم يكن زعيماً أو قائداً سياسياً. وهذا ما كان يرمي إليه علي عبد الرازق، في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» كما قال ماجد فخري. وهو الرفع من العنصر الروحي في الإسلام، والغض من شأن العنصر الزمني فيه، إلى حد ما. (ماجد فخري، دراسات في الفكر العربي، ص ٢٨٢).

تفرُّد الإسلام بالدالين: الدين والدنيا

وما فعله النبي عليه السلام، في أواخر حياته، من نشاط وإجراءات سياسية وإدارية ومالية، كانت إجراءات وقرارات لم يقم بها أي نبي أو رسول آخر في تاريخ الأديان البشرية كلها، حيث اقتصرت مهمة الأنبياء والرسل من قبل، على الدعوة الدينية فقط، دون ممارسة أي سلطان سياسي أو إداري، كما فعل النبي عليه السلام. وكان النبي عليه السلام بذلك، أول وآخر الأنبياء الذين جمعوا بين الدالين: الدين والدنيا (يُستثنى من ذلك النبي داوود ١٠٠٠-٩٦٢ ق.م، الذي كان نبياً وملكاً، وكذلك ولده سليمان من بعده. وقد كان داوود ملكاً بأمر السماء لقوله تعالى "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق" « صاد»: ٢٦).

وكان الإسلام بذلك جامعاً أيضاً لهاتين الدالين. وتلك حجة قوية في أيدي الجماعات الإسلامية والتيار الفكري الإسلامي الداعي إلى إقامة الدولة الدينية. وهذه الحجة نفسها هي، التي دحضت بقوة دعوات فصل الدين عن الدولة، كدعوة علي عبد الرازق، وخالد محمد خالد – في بداية حياته، فصل بين الدين والدولة في كتابه «من هنا نبدأ» ١٩٥٠، ولكنه عاد في عام ١٩٨١، وربط بين الدين والدولة، في كتابه «الدولة في الإسلام» – ومحمد خلف الله، وغيرهم. وجعلت بعض من قالوا بفصل الدين عن الدولة يتراجعون عن مقولاتهم ، بفعل عقدة الذنب الدينية المتأصلة في المصريين كأمة دينية منذ أيام الفراعنة (المجتمع المصري مجتمع ديني أكثر من أي مجتمع عربي آخر، باستثناء المجتمع السعودي. فليس ثمة قطر عربي آخر، طغى فيه الخطاب الإسلامي، وفرض مرجعياته على مجمل مجالات التداول الثقافي والسياسي العام كمصر) ويربطون بين الدين والدولة وينادون بقيام دولة إسلامية كما فعل صراحة خالد محمد خالد في كتابه «الدولة في الإسلام» ١٩٨١، وكما كان ينوي عمله علي عبد الرازق، لولا أن أدركه الموت، كما يشهد على ذلك محمد عمارة.

الإسلام السياسي ليس وليد اليوم

ومن هنا، كان الإسلام قد بدأ منذ أيامه الأولى سياسياً، واستمر كذلك إلى الآن. ومن الباحثين من يقول لنا بأن «دولة المدينة» التي أسسها النبي، واستمرت حتى نهاية العهد الراشدي، كانت دولة لا تختلف عن الدولة البيزنطية أو الدولة الساسانية من حيث علاقة المركز بالأقاليم المفتوحة، وكذلك من حيث سير دولة المدينة بعيداً عن الهيمنة الدينية وسيطرة الخطاب الديني. ومن هنا ظهر جيل من الولاة على الأمصار تشوب سمعتهم الدينية الشكوك، إلا أنهم فرضوا أنفسهم بحكم قدراتهم الإدارية.

ومن هنا أيضاً، فإن الإسلام على خلاف مع الأديان الأخرى التي بدأت روحانية وانتهت سياسية كالمسيحية واليهودية.

ومن هنا كذلك، استطاع الإسلام كدين سياسي، أن يؤسس إمبراطورية سياسية قوية واسعة الأرجاء مترامية الأطراف – في ظل ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية معينة – كما لم يؤسس ذلك أي دين سماوي آخر.

ومن هنا، فمن الصعب على العربي المسلم في الماضي والحاضر، أن يفصل بين الدين والدولة، بعد مضي هذا التاريخ الممتد، والربط المتصل بين الدين – كأيديولوجية سياسية – وبين الدولة.

فمنذ الساعات الأولى لقيام الدولة العربية – الإسلامية في العهد الراشدي، تمّ الربط ربطاً محكماً بين الحاكم العربي والإمام المسلم المسؤول عن تطبيق أحكام الشريعة، وحفظ الدين، وتوسعته وانتشاره. بل إن هذه الأهداف الدينية السامية، اعتُبرت من أولى مهام الحاكم السياسي، وهي في لُبِّ السياسة، بل لا سياسة بدونها.

فكانت السياسة والرئاسة في الدولة العربية – الإسلامية الأولى في العهد الراشدي لا تعني إلا نشر الدين وتطبيق تعاليمه، حيث لا نهضة اقتصادية، ولا نهضة علمية، ولا نهضة اجتماعية، تُعنى بها السياسة. فالدين هو السياسة والرئاسة باعتبار أن الحاكم السياسي كان أمير المؤمنين من الناس، وليس أمير الناس كافة من المؤمنين وغير المؤمنين. أي أنه كان أمير المسلمين وليس أمير غير المسلمين. وفي هذا اللقب السياسي/ الديني – والذي ما زال سارياً حتى الآن – ما يشرح لنا كثيراً من المهام المنوطة بالحاكم السياسي في الحكم العربي – الإسلامي. وما زال يُطلق على ملك المغرب لقب أمير المؤمنين حتى الآن، وما زال يُطلق على ملك المملكة العربية السعودية لقب خادم الحرمين الشريفين، على غرار سلاطين آل عثمان. وكان الخديوي عباس حلمي والملك فؤاد الأول ومن بعده الملك فاروق، يسعون إلى تلقيب أنفسهم بخلفاء المسلمين. وهو ما كان سبباً في أن تنصَّ المادة الأولى في الدستور المصري على أن دين الدولة الإسلام (كما في عهد عباس حلمي)، وأن يصدُر كتابٌ مضادٌ لذلك تحت عنوان «الإسلام وأصول الحكم» (كما في عهد فؤاد الأول)، وأن يُنادَى بتتويج الملك فاروق تحت قبة الأزهر بدلا من قبة البرلمان. وهو ما يشير إلى الربط المتواصل والمستمر للدين مع الدولة، لصالح الدولة، وليس لصالح الدين بالطبع. حيث كان الدين في جميع الحالات هو الجانب القوي، والدولة هي الجانب الضعيف.

وهذه النظرة للحكام، لم تكُ قاصرة على الدين الإسلامي وحده، بل هي شملت المسيحية أيضاً في فترات مختلفة، وكانت تياراً سياسياً جارفاً، عبَّر عنه الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) حين ربط بشدة قوية بين الدين والسياسة، واعتبر السلاطين هم الأمناء والشُرّاح ليس للحق المدني فقط، بل وللحق المقدس أيضاً.(جان توشار وآخرون، تاريخ الفكر السياسي، ص٢٨٨).

زمن الحلم

جمال ناجي
الاردن

واحد وأربعون عاما مرت على رحيل المناضل الأرجنتيني ارنستوتشي جيفارا ، الذي مثل نموذجا مشرقا في ثقافة أجيال العالم الثالث وربما في ثقافة أوروبا وأمريكا أيضا.

هذا لا يعني الكثير ، وربما كان المقياس الزمني هو اخر ما يمكن التفكير به عند تذكر من تركوا بصماتهم على صفحات التاريخ ، خصوصا حين يكون تأثير موتهم أكثر من تأثير حياتهم . لكن ما الذي يدعو بعض الجهات والمؤسسات السياسية والثقافية والفنية والتجارية أيضا – في اوروبا وأمريكا – الى استذكار جيفارا وإقامة الندوات عنه ، وإحياء ذكراه التي صادفت في التاسع من نوفمبر ؟ السياسيون يرون في جيفارا رمزا ثوريا وظاهرة سياسية مميزة في القرن العشرين، ويجدون في «الغيفارية» ما يشبه النظرية السياسية الماركسية القائمة على حالة نضالية رومانسية انتشرت في بلدان عديدة من العالم وتركت أثرها في أكثر من مكان.

المثقفون وجدوا أن جيفارا – الطبيب وسليل الاسرة البرجوازية – مثالا للثوري الحالم المثقف ، والاكثر تبصرا وتعقلا وقدرة على التنظير والتثقيف من رفيق سلاحه فيدل كاسترو العفوي الذي يمتلك قدرات استثنائية على القيادة والتحريض. وبطبيعة الحال فقد أصدروا العديد من المؤلفات والكتب التي تناولت حياته وسيرته ومقتله وكتاباته وخطاباته ورسائله التي كان من بينها «رسالة الوداع» المؤثرة التي وجهها الى الشعب الكوبي والى عائلته معلنا فيها ان مهمته الثورية في كوبا قد انجزت ، مع الإعتذار عن تسلم المناصب السياسية في اول حكومة ثورية يشكلها كاسترو في كوبا بعد تحريرها من نظام باتيستا.

الان ، وبعد مرور واحد واربعين عاما على مقتله ، تحضر صورة جيفارا الشهيرة الجذابة بكثافة في أماكن كثيرة من العالم ، لكن حضورها يبدو مدججا بالمعاني المتناقضة في كثير من الأحيان ، فهي لم تعد ترمز إلى الثورة اوثقافتها او رومانسيتها وحسب، إنما تحولت الى ما يشبه الماركة السياسية الثقافية والتجارية ايضا ، فالشبان في كثير من بلدان العالم يضعون على قمصانهم تلك الصورة التي نقلها الناشر الايطالي جويناكومو فلترينيلي إلى أوروبا عام ١٩٦٧ ومنها انتشرت الى انحاء العالم ، كما يرتدون «البيريه» ويطيلون شعرهم كي يقتربوا بمظاهرهم من المثال ، يبتاعون قمصانا تحمل هذه الصورة، ولو سألنا احدهم عن السبب في اختياره لها فقد لا يجيبنا ، وقد تكون جاذبية الصورة هي السبب . بعض المواقع الالكترونية حتى في الولايات المتحدة ، تضع تلك الصورة على واجهات الاستخدام ، المثقفون يعلقونها في بيوتهم ومكاتبهم ، الرئيس الفنزويلي هوجو شافيز يرتدي قمصانا تحمل صورة جيفارا، فيما يقدم الزعيم البوليفي موراليس لزواره نسخا عنها مصنوعة من أوراق نبات الكوكا. وقبل أشهر بثت فضائية الجزيرة صورا مثيرة لخبر عن قمع رجال الأمن في احدى البلدان العربية لتظاهرة طالب المشاركون فيها – من ابناء الارياف – بإصلاحات زراعية ، وكان عدد من رجال الأمن يرتدون بزات مدنية تحمل صورة جيفارا! كان الأمر مضحكا ومدعاة للسخرية المريرة ، إذ من المؤكد انهم يجهلون ما ترمز اليه تلك الصورة من معان تتناقض تماما مع ما يقومون به من أعمال قمع لمواطنيهم .

في الغرب ، وحسب تقرير صدر عن ال «بي بي سي» ، فإن صورة جيفارا(جمعت الكثير من المعاني الرأسمالية والتجارية والدينية والثورية، ولا توجد أي صورة أخرى تأخذنا إلى كل هذه المناطق، كما ظهرت هذه الصورة كديكور لمنتجات مثل المناديل الورقية والملابس الداخلية وفي أستراليا ظهر آيس كريم جيفارا بطعم الكرز والجوافة).

ثمة سر في صورة جيفارا بالنسبة للكثيرين ، مع أن السر الأعظم يكمن في تجربته الثورية التي امتدت آثارها إلى كثير من حركات التحرر العالمية ،أما المثقفون والسياسيون، فيجدون في صورة جيفارا إيحاءات توقظ في نفوسهم تداعيات زمن الحلم والنقاء الذي قد لا يعود.

نحو انثروبولوجيا عربية حقة

أ.د. محمد الدعمي
جامعة بغداد

أفاد تقرير صحفي تناقلته وسائل الإعلام أن أستاذاً أكاديمياً هندياً (إختصاصه اللغة الإنكليزية) قد كرس أكاديمية جديدة برئاسته لرصد وتسجيل ما تبقى من بعض اللغات واللهجات الآيلة إلى الإنقراض، برفقة ومساعدة تلاميذه المتحمسين لهذا المشروع لأنهم ينتمون للقبائل القديمة النائية التي تتم بين ظهرانيها عمليات التسجيل والأرشفة على طريق الحفظ وتجنب الضياع. وإذا كان للمرء أن يشعر بالحسد لهذا الأستاذ الذكي الذي قاد مشروع «أكاديمية الريف» إلى الأضواء العالمية بعد أن إحتضنته بعض المؤسسات العلمية الغربية الغنية، فقررت رعاية أكاديميته وتحمل نفقات بعض أنشطتها، فإن عليه أن يندب مصائر مئات وعشرات العادات والتقاليد واللهجات والممارسات الفولكلورية الموجودة بين حواضرنا وأريافنا وبوادينا في المشرق العربي، حيث تآكلت ثم إندثرت على طريق الموت والغياب الأبدي بلا رجعة، ودون أن تحظى بالرصد والدراسة ولا حتى الأرشفة والتسجيل. هذه حقيقة مريرة علينا الإعتراف بالتقصير حيالها، بغض النظر عن أنشطة مراكز التراث والفولكلور الشعبي الإقليمية والحكومية التي قمنا بتأسيسها على سبيل توزيع المرتبات من قبل الدول الراعية وبهدف إقامة المؤتمرات والولائم والورشات وإصدار المجلات التي لم تقدم للتراث والفولكلور شيئاً يرقى إلى ما يفعله هذا الأستاذ الهندي بمفرده (لا دولارات ولا مقرات ولا هم يحزنون) ، خاصة في منطقة الخليج العربي، وهي واحدة من أغنى المناطق بقدر تعلق الأمر بخزينها التراثي والفولكلوري العتيق الذي يتلاشى بسرعة مبهرة للأسف، من دون أن يحظى بإنتباه ودراسة أحد سوى الأجانب من المرتحلين الغربيين الذين إرتادوا ديارنا مع قوات الإحتلال وسلطات الهيمنة الأجنبية. إنه لأمر غريب ومثير للتساؤل: أن تضطلع دولنا الغنية بإقامة الجامعات العملاقة وبتوزيع كلياتها ومراكزها حتى في القرى البعيدة، ولكنها لا تفكر بتأسيس جامعة أو مركز من النوع الذي أشرنا إليه في أعلاه من أجل اللحاق بما تبقى من العادات والتقاليد واللهجات وحتى اللغات القديمة على سبيل الإمساك بها وحفظها وأرشفتها وتركها، في أقل تقدير، على رفوف المتاحف الجامعة لغبار الزمن، عسى أن تأتي أجيال أخرى فتقوم بدراستها وتحليلها وتتبع أسبابها وأصولها.

ثمة إدانة واضحة المعالم لأكاديمياتنا الزاخرة بالدرجات والشهادات والمراتب العلمية الرفيعة في إختصاصات من نوع علم الإجتماع والانثروبولوجيا أو علم الإنسان، حيث تزداد أعداد حملة الشهادات العليا في هذه الإختصاصات ومن أبرز الجامعات العالمية، بيد أن هؤلاء المتخصصون لا يمتلكون ما يرتكنون إليه من مصادر سوى المصادر التي خطها لنا البريطانيون والفرنسيون والإسبان والبرتغاليون. أليس في هذا شيء من العيب والإدانة؟ بل أن إدانة مؤسساتنا ومراكزنا العلمية تكتمل مبرراتها عندما نقرأ كتاباً ألفّه مرتحل بريطاني قبل عشرات السنين، مسجلاً فيه مئات الألفاظ والعادات والتقاليد والملاحظات والأسماء والأحداث التي لن تعد اليوم موجودة، وإذا ما أردنا إستذكارها والإرتجاع إليها فإنه ليس سوى شتم «الإستعمار البريطاني» وسبه، ثم مراجعة ما تركه لنا من كتب ومدونات ووثائق ثمينة لم نرق إلى تجميع ما يساوي ١٠٪ منها!

بقدر تعلق الأمر بالقبائل والعشائر العربية البدوية ونصف البدوية الممتدة مناطقها من البصرة والزبير شمالاً إلى سلطنة عمان جنوباً، علينا أن نرجع إلى كتاب الرحالة البريطاني العملاق ديكنسون الذي ألف، بالتعاون مع زوجته، مرجعاً لا يمكن أن نستغني عنه في أية دراسة علمية فولكلورية لحياة العرب في الصحراء بعنوان (عربي الصحراء) The Arab of the Desert. حتى هذا اليوم تقوم مجلاتنا المتخصصة بنسخ رسومه وشروحه للخيمة البدوية من أجل تشرها على صفحاتها. وهذا دليل على عجزنا من أن نأتي بمثل ما قدمه هذا الرحال «الإفرنجي» الجليل من خدمات جليلة لتراثنا! لقد جمع ديكنسون مئات الحكايات والصور الفوتوغرافية والذكريات والتقاليد والصناعات اليدوية ونماذج من الفنون الفطرية التي لم تعد موجودة اليوم وخزنها في كتابه الفذ أعلاه. ومن المؤسف، أن نفتخر بأعداد الأساتذة المتخصصين بعلم الإجتماع وبعلم الإنسان في أقسام الإجتماع والخدمة الإجتماعية بجامعاتنا من دون أن يتمكن هؤلاء أو أن تتمكن هذه الأقسام كلها مجتمعة، من نشر كتاب توثيقي يرقى إلى ربع كتاب ديكنسون أعلاه.

نحن جيدون جداً في حقول تأسيس الجمعيات والأخويات والمنظمات الإقليمية والقطرية في حقول من هذا النوع، ولكننا غير جيدين في العمل التطبيقي الحقيقي ذاته لأنه يتطلب منا ترك مكاتبنا الأنيقة وأجهزة التدفئة والتبريد للتوجه إلى الصحاري أو إلى الربع الخالي الذي لم يستكشف عبر التاريخ إلا عندما قرر إستكشافه مرتحل بريطاني آخر، كان هو أول من قام بعبوره ووصفه ووصف حتى النباتات التي تنبت فيه والحيوانات التي يمكن أن تعيش بدواخله!

وإذا كان هذا ما يتعلق بجزيرة العرب، ذلك الخزين التراثي الثر والهائل، فإن الشيء ذاته ينطبق علينا هنا في العراق، خاصة بقدر تعلق الأمر بما اصطلح عليه بـ«عرب الأهوار»، وهم المعدان من العشائر التي قطنت منذ العصور السومرية تلك المناطق المهولة التي تغطيها مياه فيضانات دجلة والفرات وتكسوها نباتات الأهوار كالقصب والبردي وتمخرها أنواع الحيوانات المائية والبرمائية. هذه المناطق كانت فردوساً للمرتحلين من نوع ولفريد ثسجر Thesiger الذي عاش بين عشائر عرب الأهوار وكان يساعدهم بتقديم الخدمات الصحية لهم في بداية القرن العشرين، إذ كان يقوم بمداواة الجرحى وحتى بعمليات ختان الأطفال. لقد عشق ثسجر عالم أو فردوس الأهوار العراقية درجة أنه كان لا يتردد بغمر القدح في ماء الهور وشرب مياهه أمام السيدات الإنكليزيات اللائي كن يتعجبن من هذا النوع من اللامبالاة، خاصة أثناء إبحارهن بالقوارب الصغيرة إلى نادي الميناء في البصرة، وهو النادي الذي كان مغلقاً فقط للإنجليز ولضيوفهم في عهد الهيمنة والوصاية البريطانية على العراق.

لجميع أساتذة علم الإجتماع في الجامعات العراقية أن يقفوا إحتراماً وإجلالاً لهذا المستشرق الذي قدم بمفرده كتاباً تحت عنوان (عرب الأهوار) Marsh Arab وهو الكتاب الذي يتفوق على كل ما قدموه (مجتمعين) عن هذه المنطقة إبتداءً من إطروحاتهم للماجستير والدكتوراه وإنتهاءً بأبحاثهم التي لا يقرأها أحد!

وتنطبق ذات الحال على عاشق بريطاني آخر لعالم الأهوار، وهو يانغ Young الذي كرس حياته للأهوار ولأهل الأهوار، فكتب العديد من المصنفات حول هذا العالم العجيب، كان آخرها كتاب (عودة إلى الأهوار) Return to the Marshes قبل أن يتوفى بسنوات، إذ بقي عشقه للأهوار ولعالمها الجميل العجيب متوقداً درجة أنه كان يضطر لإستحصال موافقة وزير الخارجية العراقي آنذاك، طارق عزيز، من أجل «زيارة واحدة» لأصدقائه من آل فرطوس وسواهم من بني لام وألبو محمد!

لم يكن صاحبنا أعلاه أكثر اهمية من الضابط السياسي البريطاني لمنطقة العمارة جنوبي العراق، وهو S. E. Hedgecock، الذي قدم مع زوجته كتاباً مرجعياً آخر بعنوان (حجي ريكان: عربي الهور) Haji Rikan: A Marsh Arab وهو وثيقة انثروبولوجية لم يتمكن العشرات من اساتذة علم الإجتماع والانثربولوجيا في الجامعات العراقية من الإتيان بما يساوي ربعها!

إنه لمن المؤسف بحق أن تتواصل هذه الحال في بعض البلدان العربية حتى بعد نيل الإستقلال وإتاحة الوفورات المالية الكافيه لرعاية مشاريع من هذا النوع، والدليل هو كتاب الهولندي «مارسيل كروبرشويك» Krupershoek الذي يقص معاناته ومكابداته بين القبائل العربية في أعماق صحراء جزيرة العرب من أجل تسجيل شيء من شعرهم الشفوي بقلمه أو بآلة التسجيل، متقلباً في رحلاته بين مرابع قبيلة وأخرى، وبين ديوان شيخ عربي وآخر، من مستقر بدوي لآخر كي يصدر كتابه المهم الذي لم يكتب عنه أحد من كتابنا العرب للأسف: (بلاد البدو العربية) (لندن: دار الساقي، ١٩٩٥ ، Marcel Kurpershoek، Arabia of the Bedouins

هذه جميعاً إدانات لتقاعس ولتأخر مؤسساتنا الأكاديمية من الإتيان بما يدل على إستحقاقها لما تحصل عليه من عناية وأموال.

اراء وافكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١. لا يزيد عدد كلمات المقالة على ٧٠٠ كلمة.
٢. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة ومرفق صورة شخصية له.
٣. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:
Opinions112@ yahoo.com